الترجمة الأدبية بين مغامرة الإبداع وصعوبات اللغة

أ. الزاوي ب. مختارية
قسم الترجمة / كلية الآداب
جامعة وهران

ساد الاعتقاد طويلا في العالم العربي – الإسلامي أن الترجمة هي "بيت الحكمة" لا غير، باعتبار أن ثقافات كثيرة اعتمدت في بنائها و نهوضها كلية على نوع واحد تقريبا من الترجمة، يتجسد في ترجمة النصوص الفلسفية و العلمية ، التي بلغت أوجها مع حركة الترجمة في العصور الإسلامية الأولى مثل تلك التي بدأت مع عبد المالك ابن مروان، وتطورت مع المأمون في القرن الثالث الهجري بتأسيس "بيت الحكمة"[1] (217هـ/832م).

و إذا كانت لحظة الترجمة سابقة على لحظة التأليف وفق ضرورة ثقافية شكلت بالنسبة لعدد كبير من الحضارات ، على غرار الحضارة الإسلامية و اليونانية و المسيحية ، حجر الزاوية في إنتاج الفعل الثقافي و الفكري و الفلسفي و العلمي؛ فإن الأمر سرعان ما تحول وفق إستراتيجية ثقافية جديدة تاريخيا إلى تبادل الأدوار للحظتين ، فتحولت الترجمة إلى "قراءة للنص الأصلي، و تأويل له، يختلف باختلاف مترجميه و قرائه .إنها عملية إبداعية و فن لا فرق بينها و بين الكتابة إلا باعتبارها ليست كتابة نهائية ، و هي ممارسة لغوية وحاجة حضارية".[*]

واللافت للنظر أن الترجمة أخذت على عاتقها مهام سياسية و لاهوتية قبل أن تتحول إلى فعل أدبي و فلسفي و علمي ، بكلمة واحدة فعل ثقافي "فالآلهة و الملوك قد سبقوا الشعراء و الكتاب، و ليس هنالك من شك في أن الترجمة المتعلقة بالخدمة(...) و الترجمة الدينية سابقتان للترجمة الأدبية"[2] فمنذ تاريخ طويل جدا كان الاهتمام كبيرا و بالغا بنقل المعنى من لغة إلى أخرى ، بما في ذلك القيمة الأدبية للنص الحامل للمعنى.[1]

و طوال هذا التاريخ المليء بالنصوص و المقالات، لم تكن اللسانيات حاضرة إلى جانب الترجمة ، و لم يكن أي من اللسانيين الذين كانوا في الأصل مصدر فن الترجمة ليكرس أدنى مكان لفحص و تحليل عملية الترجمة على الرغم من أنها عملية لسانية بالأساس . الأدب المقارن وحده ، وضمن توزيعه التقليدي للتخصصات الجامعية اهتم بالمشاكل التي تطرحها الترجمة ولكن دائما في علاقتها بالأدب . أما في مجال اللغات الحية، فلقد ظلت الترجمة تطرح بوصفها تمرينا للأعمال التطبيقية ذات طبيعة أدبية و ليس لغوية[3].

و لقد اعتبرت الترجمة لقرون عديدة تمرينا أدبيا و ما كان يرتبط بها من طرق و تقنيات اعتبر من تخصص الأسلوبية و فقه اللغة[4]، رغم أن طرائق الترجمة ظل يتجاذبها على مر التاريخ،

قطبان متصارعان هم الترجمة الدينية (ترجمة النصوص المقدسة) و الترجمة الأدبية؛ و إذا كان القطب الأول قد اتسم بالحرفية حرصا على تبليغ ما اعتبر كلام الله ، المشبع بالألغاز و المفعم بالأسرار تبليغا أمينا ، فإن الترجمة الأدبية عكس ذلك ظلت تتأرجح بين التصرف (أي الترجمة الحرة) و بين المطابقة الحرفية للنص الأصلي.

وإذا كانت الترجمة بصفة عامة هي محور انشغالنا في هذه الدراسة ، فإن الترجمة الأدبية تحديدا هي صلب الموضوع الذي نسعى إلى الإحاطة ببعض جوانبه ، و هو ما دفعنا إلى طرح مسألة الترجمة في علاقتها بمفاهيم أخرى لها صلة وثيقة بالإشكالية الترجمية عموما و هي مفاهيم : الأدب ، اللغة، الرواية ، الشعر والمسرح أي بكلمة واحدة الإبداع الأدبي.

أ - الترجمة الأدبية ... من النص إلى الإبداع

لا بد من الإشارة بدءا أن الحديث عن الترجمة ، هو بالضرورة حديث عن أنواع متعددة للفعل الترجمي، تماما كما هو الحال بالنسبة للأدب و الأجناس الأدبية. فالترجمة تنقسم وفق إعتياد تاريخي و إجرائي ، إلى ترجمة حرفية و نجدها خصوصا في نقل النصوص العلمية و الرياضية و الفيزيائية ، و حتى الدينية قديما و إلى ترجمة حرة تجتهد في نقل النص إلى اللغة الثانية وفق إستراتيجية تكاد تكون إبداعية ، و هذا النوع من الترجمة هو ما يدعى بالترجمة الأدبية ، ووفق هذا المنظور نتصور أن الترجمة هي بالضرورة ترجمات متعددة ومختلفة ، و يتجلى ذلك التعدد و التنوع في ما يمكن أن نسميه بـ"أجناس الترجمة" . و لا ينطبق هذا النعت إلا ضمن الترجمة الأدبية التي يدخل في إطارها ترجمة الشعر و الرواية و المسرح، فتكون الترجمة في حالة مثل هذه عملية إبداعية بامتياز ، تماما كالإبداع الأدبي، فتصبح الترجمة و الإبداع عمليتين توأمين. يقول أوكتافيوبات في هذا الصدد : "الترجمة لا تختلف في كثير من الأحيان عن الإبداع، (...) فهناك مد و جزر بينهما متواصل و تلقيح متبادل..." [5].

و لا شك أن أي حديث عن الترجمة الأدبية يجرنا لا محالة إلى تحديد مفهوم "الأدب" و طبيعته ، ذلك أن الترجمة الأدبية ارتبطت دوما بالإشكاليات التي يطرحها النص الأدبي، و قبل أن نحدد مفهوم "الأدب" لا بد من الإشارة إلى مفهوم آخر و هو مفهوم "الأدبية" "**Litterarité**"

الذي نعتقد أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالترجمة الأدبية . فأدبية النص شرط أساسي بين ما هو أدبي و ما غير أدبي و هي أيضا شرط أساسي لنعتبر هذه الترجمة أو تلك عملا إبداعيا و هو ما حدا بأحدهم إلى الحديث عن" أدبية النص المترجم" . [7]

يقول الباحث ذاته: "يعسر في نظرنا طرح إشكالية الترجمة الأدبية طرحا مباشرا

و ذلك لأنها تتصل بمجال الأدب الذي تعددت تحديداته منذ القديم (...) إننا نرغب أن نحدد مسألة أدبية النص الأدبي و ذلك لأننا نعتبر أن هذا التحديد يساعد على طرح إشكالية ترجمة النصوص ذات الطابع الأدبي" [8].

يبدو الحديث إذن مشروعا عن الترجمة الأدبية ، بوصفها مفهوما قابلا للتمحيص و الترويض ، وفقا لأفق بحث واسع المعاني و الدلالات ، يشمل إلى جانب موضوع الحديث و الدراسة، مفاهيم قد تبدو جانبية لكنها في واقع البحث ضرورة إجرائية بالنسبة للإشكالية و سير الدراسة . و المفاهيم التي نعتقد أن طرحها من شأنه أن يسلط الأضواء الكاشفة على الترجمة الأدبية و يجعلها أكثر ترويضا لما نحن بصدده :هي مفهوم الأدب ، و اللغة و الثقافة و الشعر و الرواية و المسرح ؛ و هي المفاهيم التي سنحاول عرضها في علاقتها بالترجمة كما يلي:

1- الأدب و الترجمة:

لا نزعم في هذا الحيز أن نقدم بحثا مفصلا في مفهوم الأدب و ما يرتبط به من مفاهيم أخرى مثل النص و الأدبية و ما إلى ذلك، بل إن غرضنا هنا هو طرح مسألة الأدب أو النص الأدبي في علاقته بالترجمة و ذلك في سياق إشكالية البحث التي نحن بصدد دراستها ، إعتقادا منا أن الكشف عن بعض جوانب هذا المفهوم ، من شأنه أن يسلط الأضواء على الترجمة الأدبية بوصفها فعلا أدبيا و إبداعيا في آن واحد و نلاحظ هنا مع رولان بارت **ROLAND BARTHES** أن مفهوم الأدب"مفهوم عائم ، شديد الإتساع، ثم أنه تطور كثيرا عبر التاريخ (...) الكلمة ذاتها حديثة العهد و لم تظهر إلا منذ أواخر القرن الثامن عشر، و في ما قبل كان الحديث عن الفنون الأدبية **lettres** و عن الآداب الجميلة و كان هذا يعني شيئا آخر"[9].

إن الأدب بهذا المعنى مشروط بأطر تاريخية و إجتماعية تجعل منه مفهوما يخضع لا محالة، للزمان والمكان فيقول بارت دائما : "ينبغي أن نضع المسألة في إطارها الإجتماعي، في إطار الحياة الإجتماعية و هذا أمر بالغ الأهمية لأن الأدب ليس موضوعا خارج الزمان ، ليس قيمة خارج الزمان، و إنما مجموعة من الممارسات و القيم المشروطة بمجتمع معين"[10]

إذا كان هذا الكلام يقال عن الأدب بوصفه فعلا ثقافيا منتجا للمعاني الرفيعة و الجميلة ، فإن الترجمة الأدبية تخضع بدورها لنفس المقاييس و المعايير بوصفها هي الأخرى فعل ثقافي و حضاري ينقل و يروج المعاني الحضارية و الإنسانية الكبرى . فتكون الترجمة بهذا المعنى الفضاء الآخر الأكثر إتساعا و شساعة للأدب . يقول جوزي لامبر في هذا الصدد "بما أن الترجمات تشغل وظائف محددة داخل الآداب و فيما بينها ، يصبح من اللازم أن يقود تحليل هذه الوظائف أو تحليل الترجمات نفسها إلى قلب الآداب، و قلب وظائفها (...) إن الترجمات لا تشكل سوى أحد قطاعات العلاقات الأدبية العالمية، أو في أحسن الأحوال نوعا من الإستيراد الأدبي"[11] و لكننا يجب أن نتساءل هنا عن طبيعة الأدب و طبيعة الترجمة ، و العلاقة الممكنة بينهما. فالأدب هو خطاب ذي بنية رمزية و جمالية و لغوية في غاية التعقيد ، يطرح دون أدنى شك صعوبات قد تصل إلى درجة الاستحالة أمام المترجم، فتكون بذلك الترجمة مشروعا لا يكتمل أبدا و حلما بعيد المنال ، و المترجم بهذا المعنى يكون كمن يستحوذ على ملكية الغير ، فيكون دائما في موقع الباحث عن شرعية لما يفعل، و لا شك أن أجمل مسوغ و قانون بالإمكان أن يمده بتلك الشرعية هو "إبداع"

النص الأدبي الأصلي مرة ثانية . و إذا كان المنظر الكبير للأدب جيرار جينيت **GERARD GENETTE** يحسم مسألة الترجمة الأدبية بالسلب جملة وتفصيلا عندما يقول :"من الأحكم للمترجم دون شك أن يتقبل كونه لا يقوم سوى بفعل ضار ، و أن يحاول مع ذلك القيام به على احسن وجه ممكن ، مما يعني غالبا القيام بشيء آخر"[12] فإن باحثا آخر و هو فورطوناطو إسرائيل **ISRAEL FORTUNATO** ، من معهد الترجمة في باريس **(E.S.I.T)** يحاول الرد بالإيجاب على ما يذهب إليه جينيت فيقول :"أن مترجم الأدب يقوم دائما بـ "شيء آخر" ما دام هناك خرق للحرفية ، وما دام هناك تحويل و إنزياح أي بعبارة أخرى تملك"[13]. هكذا إذن تصبح الترجمة الأدبية كتابة قائمة بذاتها تكاد توازي الكتابة في نصها الأصلي، فهي تقيم لنفسها صرحا لغويا جديدا بكل ما يتطلبه ذلك الصرح من استعارة و مجاز و صور بلاغية و جمالية لينتهي في الأخير إلى نص جديد على الرغم من أنه يؤول إلى نص سابق و يحيل عليه و المترجم بهذا المعنى يضع نفسه في علاقة خاصة و جد معقدة مع النص الأدبي و الأدب بصفة عامة . فهو بداهة ممارس ماهر للكتابة ، يعي تمام الوعي إستراتيجيات الكتابة و تقنيات الترجمة ، حتى تسهل عليه مغامرة الإبداع.

قد تكون المغامرة لاحقة لمغامرة سابقة ، و لكن "إبداعيتها" و"شعريتها" "أدبيتها" وتجعل منها "نصا" جديدا قائما بذاته ، و لكن دون أن تنسى أو تفقد وعيها بالإحالة على مغامرة سابقة و نص سابق . و في هذه العملية و العلاقة المعقدة كثير من اللؤم و الدهاء المشاكس، ذلك أن المترجم حسب "لادميرال **LADMIRAL**" ينظر إلى الأدب فقط عبر ما يختاره من جوانب و ملامح يخضعها لمرآة عاكسة ومكبرة لتفاصيل ضرورية لتمكينه من الإقناع[14].

"و هذا المعنى تصبح الترجمة الأدبية استراتيجية قائمة بذاتها ، ظاهرها الترجمة وباطنها الكتابة و الإبداع ، و يكون المترجم شاهدا و فاعلا في آن واحد فهو شاهد على نص سابق، و فاعل و مبدع لنص لاحق مع ضرورة الوعي و الإلتزام بمسافة معينة تفرضها اللغة و الثقافة و الجنس الأدبي على المترجم ، حتى يكون أمينا للنص السابق و مبدعا لنص في حلة لغوية جديدة. و هذا الأمر يفرض نفسه على نوع معين من الترجمة الأدبية وهي ترجمة الشعر لما لهذا النوع من خصوصية معقدة و مركبة جدا ، تجعل مهمة المترجم محفوفة بكثير من المخاطر و الصعوبات. يقول الدكتور محمد مفتاح في هذا الصدد : "فعلى مترجمه (أي الشعر) أن يراعي المضمون و البنية و الشكل والصورة و الرموز و الأصوات؛ على أن الخطاب الشعري تهيمن فيه بعض العناصر على الأخرى تبعا للظروف التاريخية و المذاهب الفنية و السياق العام،فقد شاع حينا من الدهر شعر المضمون، وانتشر حينا آخر من الزمان شعر الشكل ، و ركز أحيانا على الصوت و مزج بين اللغة و الرسم. إن الأهم هو النظر إلى مهيمن النص ليبرز في الترجمة ، لأن محاولة ترجمة كل المكونات الشعرية معجزة لا يمكن أن ينهض بها أحد."[15]

و لا شك في أن الترجمة الأدبية في اختلافها عن الترجمة العلمية و الترجمة السياسية والدينية و غيرها ، تفرض استراتيجية معينة في الكتابة تستدعي بدورها الانتباه إلى مفاهيم أساسية مثل مفهوم "النص" و مفهوم "الكاتب" صاحب النص ومفهوم "المتلقي" قارئ النص أو مترجمه. و المترجم الأدبي في مثل هذا يكون مطالبا بالانتباه إلى "مقاصد صاحب النص و استراتيجيته و (...) مقاصد النص و استراتيجيته . فمقاصد صاحب النص تحدد الجنس و الأنواع و الأهداف، و مقاصد النص تجعله ينظم نفسه وينمو تلقائيا و يتناسل و يحيل على نفسه. على أن هناك عنصرا ثالثا صار يؤخذ في الحسبان و هو القارئ –المتلقي أو المترجم ، إذ لم يبق ذلك التصور الذي كان يرى أن المعاني معطاة في النص ، و أن ليس على المحلل أو المترجم إلا أن ينقلها إلى الناس كما هي ، على أن هناك تصورا يسعى جاهدا ليحل محله و هو أن النص ليس إلا قادحا لبناء معان من قبل المتلقي أو المترجم"[16].

نستنتج مما سبق أن ثمة وضعا خاصا و متميزا ينفرد به المترجم الأدبي. صحيح أنه لا يدعي لنفسه موقع مبدع النص الأصلي ذلك الموقع الذي تصدر عنه كتابة ذات طبيعة نسميها عادة وفقا لمفاهيم معهودة: رواية ، أو شعرا أو مسرحا،...إلخ، و لكنه يتموقع –لا محالة– ضمن استراتيجية الكتابة و الإبداع. و عندما نقول استراتيجية فإننا نقصد في النهاية البوح و الإفصاح عن أشياء ، و السكوت و التكتم عن أخرى في آن واحد من طرف الكاتب أو المبدع

ترجمة الشعر و المسرح

إن استراتيجية الكتابة و الابداع التي ينخرط ضمنها المترجم ، تفرض عليه وضعا صعبا و معقدا عندما يتعلق الأمر بترجمة الشعر الذي يكتسي طابعا خاصا من بين الأجناس الأدبية. فالشعر باختلافه و تميزه بلغته و خصائصه الفنية و بنيته النصية ...إلخ ، يفرض على المترجم الأدبي جملة من الصعوبات و العقبات تحول ترجمة الشعر إلى حالة مستعصية ، بل و حتى مستحيلة. "فمهما تكن براعة المترجم ، فإن الشعر يأبى النقل ، و إذا ما حول عن لغته الأصلية فإنه يفقد قيمته و يصير في اللغة المنقول إليها نصا ممسوخا مشوها.إذا كانت ترجمة الشعر عملية عبثية ميؤوسا منها فليس ذلك راجعا إلى المترجمين ، و إنما إلى طبيعة الشعر نفسه الذي لا يحتمل التحويل"[17].

و هذا يعني أن ترجمة الشعر هي الأشق بين كل الترجمات الإبداعية، لأننا ملزمون فيها بالتضحية بشيء ما في سبيل ربح شيء آخر. و إذا كانت اللغة بحد ذاتها قاصرة على نقل الأحاسيس و العواطف و الرؤى فلنتخيل ما تكون عليه الحال عند مرور هذه الأحاسيس و العواطف عبر لغتين ، فالانحراف الشعري (أو الإنزياح أو الغرابة) حدث هنا مرتين. الأولى عند التعبير عن هذه الأحاسيس و العواطف بلغة تقتصر على بلوغ الهدف و الثانية عند انتقال هذه الأحاسيس من لغة إلى لغة عبر إنسان قد لا يكون بالضرورة شاعرا .

بوضع مسافة بين اللغة و "متن اللغة" و يكون بالتالي "يقظا دوما أمام الحقيقة الثالثة أن استعمال الرموز اللفظية يمكن أن يتحول فورا من اللغة إلى متن اللغة و فضلا عن ذلك، تعتبر ترجمة النصوص الخاصة بمتن اللغة ، أمرا عسيرا للغاية لأن "العوالم" اللغوية (أي التراكيب النحوية لشتى اللغات)التي تمدنا بالمدلولات اللغوية تختلف فيما بينها اختلافا جوهريا كبيرا عن "العوالم" الثقافية التي تمدنا بالمدلولات غير اللغوية"[28]

يتضح إذن أن الترجمة في موقع الاختبار اللغوي تفرض وضعا إشكاليا جديدا يحمل من الصعوبات ما لا يمكن فكها إلا إذا ربطنا فعل الترجمة بالدرس اللساني فتكون الترجمة لغة / موضوعا ، تطرح ليس بالضرورة إشكاليات النص اللغوي الأصلي بل إشكاليات جديدة عادة ما تكون مقرونة بصعوبات نظرية وإجرائية جديدة.

1- نخلص إذن عبر هذه السلسلة من الملاحظات المرتبطة بالترجمة في علاقتها باللغة، و اللغة في علاقتها بالأدب ، و اللغة في علاقتها باللغة (الأصل / الهدف) إلى أن الأمر يتعلق في النهاية بمسألة في غاية الأهمية ، وهي تحول الدليل في علاقته بالمعنى إلا يمكننا أن نميز مع رومان ياكوبسون **ROMAN JAKOBSON** ثلاثة أنواع من الترجمات الدليل:

2- الترجمة داخل اللغة (**INTRALINGUALE**) ، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة دلائل أخرى من اللغة نفسها .

3- الترجمة بين اللغات(**INTERLINGUALE**) ، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة لغة أخرى.

4- الترجمة بين السميائية (**INTERSEMIOTIQUE**) ، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة أنسقة من الدلائل غير اللغوية[29] .

إن هذا التصنيف لفعل الترجمة و المستند بالأساس إلى خلفية لسانية، يطرح أمامنا، كما ذكرنا أعلاه إشكالية انتقال الدليل [30] عبر فعل الترجمة و ما يخلفه من تبدل و إنتقال في المعنى أو الوهم بذلك وبقاء المعنى على ما هو عليه على الرغم من أن تحول الدليل و انتقاله عبر أحد أصناف الترجمة المذكورة أعلاه يكون قد تم بالفعل.[31]

III- الترجمة بين الثقافة و المثاقفة:

ثمة مسألة أخرى تسترعي الإنتباه تتمثل في البعد الحضاري – الثقافي للترجمة، فهي بالإضافة إلى كونها فعلا لغويا و تأويلا إبداعيا متجددا، فإنها فعل ثقافي و حضاري بامتياز، بل نذهب أبعد من ذلك و نقول إن الترجمة هي المعيار الحقيقي و المقياس الأساس لتقدم أو تأخر أية ثقافة أو حضارة "فالثقافة ذات المستوى الرفيع لا تستغني عن الترجمة كيف ما كان الأمر"[32].

و من المعروف في هذا المجال أن العرب و المسلمين لم يعوا دور النقل عن اليونانية إلا بعد ما تطورت التساؤلات المطروحة حول قضايا فلسفية كبرى[33] مثل القضاء و القدر و النفس و الماهية و

الوجود و غيرها. زد على ذلك أنهم لم يهتموا بالتنجيم إلا بعد إدراكهم لضرورة الحساب و مبادئ القواعد في الحساب، الذي كان يستعمله الفقهاء في العبادات و المعاملات و لهذا كله يجب الإنتباه إلى أن التراجع في حركة الترجمة يعبر دائما عن تراجع ثقافي[34].

و وفق هذه النظرة، فإن الترجمة كانت في لحظات تاريخية كبرى سابقة على التأليف، بمعنى أنها كانت و ربما لازالت هي المحفز و الدافع على الكتابة و التأليف... وسواء تعلق الأمر بلحظة الترجمة أو لحظة التأليف، فإن كلا اللحظتين تستدعيهما دوما إرادة و ضرورة ثقافية غالبا ما تكون مقرونة بضرورة و حتمية الانفتاح على العالم[35]

إن الترجمة بهذا المعنى نقل و تحويل للمعاني الثقافية و الحضارية على الرغم من كل الأسئلة و التحفظات المطروحة بشأنها، كاستحالة الترجمة أو إمكانيتها... إلخ. فما دام الأمر يتعلق بفعل ثقافي. بفعل الترجمة . بفعل الكتابة، فإن واقع الحال هو إنتاج المعنى وانتقال الدلالات عبر أكثر من لغة وأكثر من ثقافة "والترجمة كنقل لمحتوى دلالي، من شكل في الدلالة إلى آخر، عملية ممكنة. صحيح أنها تطرح بعض الصعوبات، ما دامت تريد أن تخضع نصا يقول "الشيء نفسه" و "الغاية نفسها"، و لكنها عملية ممكنة[36]. بل هي عملية ضرورية في الحوار بين الثقافات و التواصل بينها. و المترجم بهذا المعنى كاتب و مبدع و محترف في صناعة اللغة، في آن واحد. ذلك أن "مهمة المترجم و قيمته تتجليان في مدى قهره للصعوبات التي يطرحها تعدد اللغات، و تباين الثقافات و ذلك بأن ينتج نصا يكون طبق الأصل مهمته أن يقهر المسافة التي تفصل النص عن ترجمته، و الأصل عن نسخته، و أن يمحو إسمه ليسمح لكاتب النص الأصلي أن يتكلم بلغة أخرى دون أن يفقد هويته. و يريد المترجم أن يكتب النص بإسم كاتبه، أن يكتبه دون أن يوقعه، يريد أن يتدخل دون أن يتدخل، و أن يظهر ليختفي"[37].

إن انتقال النص من لغة إلى أخرى يقتضي أول ما يقتضي استيعاب المترجم للخلفيات و الخصوصيات الثقافية التي تؤطر النص و تمنحه تلك المنظومة من الدلالات و الرموز، فالثقافة بهذا المعنى شأنها شأن اللغة هي التي تمنح النص صفته الإبداعية و تعطي لفعل الترجمة مشروعية القيام و التحويل فإن "كانت هناك ترجمات فلإن هناك ثقافات و لغات، و ما الترجمة إلا عمليات التحويل اللامتناهية، وإعادة الإنتاج الدائمة لهذه اللغات و تلك الثقافات"[38].

و الثقافة في علاقتها باللغة تكون ما نسميه عادة بالرؤية إلى العالم، و على الترجمة إذن، أن تعي – حتى لا نقول تلتزم – ذلك البعد الأساسي في النص الإبداعي و الذي تدعوه الترجمة بالأيقونات[39]. و لغتنا كما يقول جورج مونان "هي التي تنظم رؤيتنا للعالم، و أننا لا نرى من العالم غير ما ترينا لغتنا، مع كل ما تستتبعه هذه النظريات من عواقب تتعلق بنظرية الترجمة"[40].

إلى جانب الثقافة باعتبارها مجموعة من العادات و الرموز و الإيقونات، هناك مفهوم آخر يعطي للترجمة مشروعية أكبر و دورا أكثر أهمية من أي دور آخر، و هو مفهوم التثاقف** ذلك أن

هذه الظاهرة الحضارية خلقت في الكثير من الأحيان وضعا ثقافيا و لغويا شبيها بالفعل الترجمي عندما يتحقق كتحول و إنتاج جديد للمعاني و الرموز و الدلالات و المعارف، فالتثاقف بهذا المعنى هو " الإستيعاب الثقافي، و التحول الثقافي والإنصهار الثقافي (...) نقول بالنسبة للحضارة الإسلامية مثلا، بأن ظاهرة الإستيعاب الثقافي بدأت تتكون إنطلاقا من النصوص اليونانية إلى العربية في عصر المأمون. إن الترجمة هي العملية التقنية اللغوية التي تنطلق منها العملية التركيبية المتشبعة التي هي توغل الوراثات و المعارف و الذهنيات الآتية من الثقافات السابقة، إلى الثقافات العربية (...) و المعروف أن الغرب قد إكتشف من جديد أصوله الثقافية اليونانية عن طريق الترجمة من العربية إلى اللاتينية، مما يثبت لنا أن الإستيعاب الثقافي الذي عاشته الحضارة الإسلامية قد أحدث تحولا ذاتيا و عالميا معا"[41]

IV- الرواية العربية و الترجمة:

إن ترجمة الأيقونات و الخصوصيات الثقافية و الرموز و الأساطير... غالبا ما تحيل على جنس أدبي بعينه دون الأجناس الأخرى، و هو هنا " الرواية " بإمتياز، لما لهذا الجنس الأدبي من خاصية أدبية و إبداعية، تجعل معها النص الروائي و الكتابة الروائية فضاء و مساحة فريدة لإستيعاب كل تلك الأيقونات و الخصوصيات، ويجعل بالتالي من الترجمة فضاء مضاعفا و مكررا لتحويل و نقل و إعادة إبداع تلك الأساطير و الرموز الثقافية. إن الرواية بهذا المعنى جنس أدبي يلخص إبداعيا اللحظة الثقافية و الحضارية في لحظة واحدة هي الكتابة لا غير، و الرواية بتعبير أنتروبولوجي، و بعيدا عن الموقف النظري النقدي هي " الإنتقال من حالة البراءة إلى حالة التجربة، و ذلك الجهل الذي يعد بركة إلى الإدراك الناضج لسلوك العالم الفعلي"[41] و لا شك أن الثقافة العربية و الأدب العربي لم يخلوا من هذه الظاهرة التي هي الكتابة الروائية، فمنذ عصر النهضة عرفت الرواية تطورا متواصلا و عكست بحق كل تلك الأيقونات الخاصة بالعرب دون غيرهم، كما عكست أيضا بصدق حياة الشعوب العربية إلى غاية تلك التجمعات الصغيرة سواء في المدن أو القرى، راسمة بذلك حياة الناس من عمال و حرفيين و بقالين، و موظفين صغار، و طلبة و فلاحين إلا أن النجاح الحقيقي للرواية العربية لن يرتسم إلا بين الحربين العالميتين الأولى و الثانية. لكن وقبل ذلك يجب الإنتباه مع أندريه ميكائيل (André Miquel)إلى أن الذي سيعطي مكانة حقيقية للرواية في الأدب العربي، هي مرة أخرى ترجمة الأعمال الروائية و القصصية عن لغات أجنبية، و هي العملية التي لازالت مستمرة و متواصلة إلى يومنا هذا[43].

من المعروف أن العرب في بداية عصر النهضة، قد تأثروا كثيرا بالثقافتين الفرنسية و الإنجليزية اللتين سيطرتا على حياتهم المختلفة، و التي ظهرت آثارها في تلك السلسلة الطويلة من الترجمات القصصية عن الفرنسية و الإنجليزية. و لعل أكبر دليل على هذا التأثر هو أن معظم الروائيين مارسوا الترجمة أيضا، وكانوا كلهم ممن يتقنون اللغة الفرنسية –أو الإنجليزية أحيانا، و فيهم من عاش أو تعلم في أوروبا. و هكذا " أخذ العرب يتطلعون إلى نتاج الفكر الغربي الذي لعب

دورا هاما في تحرير شعورهم و تطوير شخصيتهم ... وكانت القصة أول ما قابلوه أمامهم ... و لعل دنو هذه القصة من المنابع الشعبية و إستجابتها لرغبات القارئ العادي، كان سببين مهمين في إيثار الكتاب لها، و تفضيلها عن غيرها من ألوان الأدب[44] نستنتج إذن مما سبق ، أن العرب قد تأثروا بالفن الروائي الغربي بواسطة طريقتين : طريقة الترجمة و طريقة الاتصال المباشر لا سيما بالنسبة للكتاب الذين أتيح لهم إتقان لغة أجنبية أو أكثر. لقد كان الكتاب العرب ظمأى للنهل من الثقافة العالمية دون أن تكون هناك خطة منظمة للاقتباس و من الطبيعي أن يستهويهم من هذه الثقافة ما كان أقرب إلى نفوسهم و أسهل تناولا .

و الواقع أن القراء العرب قد وجدوا في هذه الترجمة عونا كبيرا على الاطلاع على الآداب الأجنبية ، فلقد قرؤوا الروايات المترجمة في الصحف و المجلات التي بدأت تنتشر في كل العواصم العربية ...و قد حاولت هذه المنشورات أن تسترضي جماهيرها بهذا القصص المترجم الذي كانوا يتقبلونه تقبلا حسنا لما يجدون فيه من المتعة و التسلية[45] . ورغم أن رائد الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث جرجي زيدان(**1861 - 1914**) كان سباقا في هذا الميدان من خلال أعماله التي خصها لكبار الوجوه و الشخصيات الإسلامية في تاريخ الإسلام القديم و الحديث ، فإن مصطفى لطفي المنفلوطي (**1876- 1924**) برز بحق أول ناقل و مترجم و ملخص لأعمال روائية أجنبية مثل (شاطو بريان) (**Chateau -briand**) و(بيرناردان) (**Bernardin**).

و الواقع أن العرب قد ترجموا في القرن التاسع عشر ، و النصف الأول من القرن العشرين ، روايات كثيرة لكنهم كانوا يستهترون بأسلوب السرد ...كانوا يكتبون بلغة هزيلة ، لا تخلو من الأخطاء ...أضف إلى ذلك أنهم كانوا لا يتقيدون بالنص الأصلي بل كثيرا ما كانوا يشوهون الأسلوب و يمسخون الحكاية بإضافاتهم و إيجازاتهم و تدخلهم ...لكن هذه الترجمة على الرغم من مساوئها و عيوبها فلقد أفادت العرب كثيرا إذ علمتهم كيف يكتبون الرواية ، و لقنتهم أساليب السرد المختلفة.

و لئن اتسمت الترجمة قبل الحرب العالمية الثانية بالفوضى و انعدام التخطيط وغياب الهدف ، فلقد تطورت في الخمسينات و الستينات أيما تطور . و قد لا نشك في أن تعليم اللغات و تأسيس الجامعات و تطور الصحافة وغيرها من العوامل التي ساعدت على تنشيط حركة هذه الترجمة كما و كيفا ، و قد قامت بعض الحكومات العربية(مصر، سوريا، لبنان، العراق) بوضع الخطوط العامة لتنظيم الترجمة كما شجعت الكتاب على اختيار أعمال أكثر جدية و بذل مزيد من العناية بمستوى الترجمة

وما يلفت الانتباه خلال هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، أن المكانة المرموقة التي احتلها الأدبان الفرنسي و الإنجليزي سابقا أخذ بالتنحي جزئيا فاسحا المجال للأعمال الروائية الألمانية و الأمريكية والإسبانية ، و مع أواسط الستينات اهتمت العديد من الدول العربية (الجزائر، المغرب، تونس، السعودية ودول الخليج،..) بحركة الترجمة ، الأمر الذي أدى إلى ازدياد عدد

الروايات المطبوعة ، و تنوع مصادر الترجمة ، وبالتالي تنوع الكتب المترجمة فإضافة إلى الكتاب الفرنسيين و الإنجليز بدأنا نسمع أسماء مهمة أخرى مثل كافكا و مورافيا وطوماس مان و غارسيا ماركيز

وهكذا تنوعت الترجمة الأدبية في العالم العربي وتعددت: فمن الميتولوجيا الإغريقية إلى الأدب الفرنسي إلى الأدب الإنجلوسكسوني إلى الأدب الأمريكي – اللاتيني.

الإحالات:

1- عبد السلام الطويل "الأنا / الآخر، بعض مظاهر التصور في ميدان الترجمة" في مجلة فكر و نقد العدد 22 ص74

2- إدمون كاري و آخرون "الترجمة و التلاقح الثقافي مطبعة فضالة المحمدية المغرب 1998 ص 174"

3- لمزيد من التفاصيل ينظر *Georges Mounin « Linguistique et traduction » ED : Dessort et Mardaga. Bruxelles1976 P.71*

4- روبير لاروز" في مفهوم الترجمة و تاريخها". العدد 22 ص 46

5- أوكتافيوبات : "الترجمة: الأدب و الأدبية " ترجمة إدريس المسموديو محمد القاضي . في مجلة فكر ونقد ص70

7 ينظر المنصف الجزار "الترجمة الأدبية" في "الترجمة و نظرياتها"، إعداد مجموعة من الأساتذة الجامعيين، المؤسسة الوطنية للترجمة و التحقيق و الدراسات "بيت الحكمة" ، تونس 1989 ص110.

8- نفس المرجع و الصفحة.

9- رولان بارت "درس السيميولوجيا" ترجمة عبد السلام بنعبد العالي ، دار طوبقال الدار البيضاء المغرب 1986 ص 34.

10- نفس المرجع و الصفحة.

11- جوزيه لامبير "الترجمة" ترجمة حسان محمد عبد الفتاح في مجلة فكر و نقد عدد 10 ص116.

12- جيرار جينيت في كتابه "طروس" الصادر ضمن منشورات سوي باريس 1982 ، ورد في فورطوناطو إسرائيل "الترجمة الأدبية : تملك النص " ترجمة مصطفى النحال في مجلة فكر و نقد العدد 10 ص129.

13- فورطوناطو إسرائيل نفس المرجع و الصفحة

14- ينظر *J.R LADMIRAL: « Traduire : Théorèmes pour la traduction » .ED petite bibliothèque, payot paris p 110*

15- مفتاح محمد :"التشابه و الاختلاف، نحو منهاجية شمولية" المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 1996 ص 201- 202

16- نفس المرجع و الصفحة .

17- عبد الفتاح كيليطو:"بين الفلسفة و الشعر" في مجلة فكر و نقد ، عدد 22 ص 82.

19- أورده عبد الفتاح كيليطو في نفس المرجع ص 81.

20- جان كوهن "بنية اللغة الشعرية" ترجمة محمد الولي و محمد العمري ، دار توبقال المغرب 1986 ص 6.

21- ينظر
ED (les fandation du langage) Essais de linguistique générale :ROMAN Jakobson Minuit Paris 1963 p 86

22- ينظر *Georges mounin « linguistique et traduction » OP .Cit P164*

23- جوليا كريسطيفا : "علم النص" ، ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال ط2 الدار البيضاء(المغرب)1997 ص 7.

24- عبد الفتاح كيليطو "بين الفلسفة و الشعر" في مجلة فكر و نقد العدد 22 - 77 .

25- نفس المرجع و الصفحة .

26- جورج مونان "المسائل النظرية في الترجمة " ترجمة لطيف زيتوني دار المنتخب العربي بيروت 1994 ص 57

27- ينظر يوجين نيدا :"نحو علم الترجمة" ترجمة ماجد النجار ، مطبوعات وزارة الإعلام، العراق 1976 ص118.

28- نفس المرجع ص 119.

29- ينظر *Roman Jakobson OP.Cit 79.*

30- الدليل اللساني عند سوسور ***Saussure*** ، وحدة نفسية ذات وجهين ... و هذان العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا و يتطلب أحدهما الآخر ... و نطلق على هذا التأليف بين التصور ***Concept*** و الصورة السمعية ***Image Acoustique*** الدليل ... و نقترح الإحتفاظ بكلمة دليل لتعيين المجموع، و تعويض التصور و الصورة السمعية ، على التوالي بمدلول و دال".
لمزيد من التفاصيل ينظر ***Ferdinand deSaussure : « Cours de linguistique générale ED Payot Paris 1963 P99.***

31- يعطي رومان جاكبسون مثالا على ذلك قائلا : "خلال السنوات الأولى للثورة الروسية ، دعا بعض الحالمين المتحمسين ...إلى مراجعة جذرية للغة التقليدية ، و قد طالبوا بحذف عبارات واضح خداعها ، مثل "طلوع الشمس" و "غروبها" و مع ذلك فنحن مازلنا نستعمل هذا التصوير البطليموسي دون أن يستدعي ذلك رفض المذهب الكوبرنيكي كما يسهل علينا أن ننتقل من حواراتنا اليومية حول الشمس الطالعة أو الغاربة إلى تمثل دوران الأرض لأنه بكل بساطة يمكن لكل دليل أن يترجم إلى دليل آخر يبدو لنا أدق و أكثر تصورا ".
لمزيد من التفاصيل ينظر Roman Jakobson *OP.Cit 81.*

32- محمد علال سيناصر في ندوة "الترجمة و التلاقح الثقافي" ص56.

33- لمزيد من التفاصيل ينظر كتاب ندوة فكرية "حول الترجمة في الوطن العربي" مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000 ص52.

34- محمد علال سيناصر في ندوة "الترجمة و التلاقح الثقافي" ص نفس الصفحة.

35- يلاحظ أحد الباحثين قائلا: "تبقى الترجمة ضرورة بالنسبة لمختلف الحضارات، فقد ترجمت الحضارة اليونانية تراث الشرق القديم (من حساب و فلك و زراعة)، و ترجم الرومان عن الإغريق آدابهم و فلسفتهم وترجم العرب عن الإغريق و الرومان و الفرس و الهنود، هذا إذا حصرنا الاهتمام في التجارب القديمة"
ينظر: عبد السلام الطويل : "الأنا / الآخر، بعض مظاهر القصور في ميدان الترجمة" في مجلة فكر و نقد عدد 22 ص73.

36- ينظر عبد السلام بنعبد العالي "الترجمة و الميتافيزيقا" في مجلة الكرمل عدد 17، 1985 ص178.

37- نفس المرجع و الصفحة

38- عبد السلام بنعبد العالي: "دائرة الترجمة " في مجلة فكر و نقد عدد 11 ص138.